الاسرة والتربية الاسلامية

للأستاذ عبد المنصف محمود

واعظ مركز شبين الكوم

(١)

اهتم الدين الإسلامى بتربية الطفل تربية حسنة ، وتنشئته تنشئة صالحة ، وتهيئته لأن يبرز إلى المجتمع ... مثال الشجاعة ، والنبل والحصافة ، بعيد عن الدنايا ، متحليا بالأخلاق الفاضلة ، والشيم الطيبة ، والخصال الجليلة ، والصفات الحميدة . . ذا همة عالية ، ونفس وثابة ، وعزيمة قوية . . والأسرة هى المكان الأول لذلك ؛ لأنها البيئة الطبيعية لنشوئه . وتنمية مواهبه ، وتهذيب غرائزه ، وتكوين شخصيته .

وكما اهتم الإسلام بتربيه الطفل ، اهتم أيضا بتربية الطفلة ، والعناية بها ؛ لما لها من أهمية فى الأسرة . وأثر فعال فى تربية أولادها ، وخاصة فى سنواتهم الأولى ، حينما تصير أما . . وكيف لا يعنى بها أشد عناية ، وهى المدرسة التى يتلقى فيها الطفل مبادئه وتعاليمه الأولية ؟

قال شاعر الشعب المرحوم حافظ إبراهيم :

من لى بتربية النساء فإنها ... فى الشرق علة ذلك الإخفاق
الأم مدرسة إذا أعددتها ... أعددت شعباً طيب الأعراق
الأم روض إن تعهده الحيا ... بالرى أورق أيما إيراق
الأم أستاذ الأساتذة الألى ... شغلت مآثرهم مدى الآفاق

فالأم إذا كانت متدينة ، مثقفة مهذبة ، عريقة المجد ، كريمة المحتد ، سليلة بيت شريف : أخرجت للوطن أبناء مثقفين ، أوفياء مخلصين ، أمناء متدينين . . قال شاعر العراق المغفور له « معروف الرصافى » داعيا قومه إلى تعليم البنت :

نصف المجتمع الذى يعيش فى غياهب الجهل ، بينما هى المدرسة الأولى للناشئة :

ولم أر للخلائق من محل ... يهذبها كحضن الأمهات
فحضن الأم مدرسة تسامت ... بتربية البنين أو البنات
وأخلاق الوليد تقاس حسنا ... بأخلاق النساء الوالدات
فكيف نظن بالأبناء خيراً ... إذا نشأوا بحضن الجاهلات

الإنسان فى مهد طفولته ، وأيام صباه ، ينشأ على فطرة سليمة ، ونفس صافية ، تتأثر بالخير والكمال ، كما تتأثر بالشر والضلال . . يخرج من بطن أمه لا يعلم شيئا من الخير ، ولا يفطن لشىء من الشر ، حتى إذا نمت فيه الحواس التى منحها الله له وقويت كان إلى الخير أقرب منه إلى الشر ، وذلك لأن العقول السليمة التى لم تشبها شائبة ، ولم تفسدها الأهواء المضلة ، والوساوس الشيطانية ، أسرع قبولا للخير بل وأكثر استعدادا له وارتياحا إليه قال جلت حكمته : « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون » . وتلك لعمر الله هى الفطرة السليمة التى حدثنا عنها القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة قال الله تعالى : « فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » وفى حديث قدسى يقول الله عز وجل : « كل عبادى خلقت حنفاء فاجتالتهم الشياطين عن دينهم وأمروهم أن يشركوا بى غيرى » .

فنفس الطفل فى بدء أمره قابلة لأن تنقش فيها الأخلاق الكريمة ، كما تنقش فيها الصفات الذميمة . فمثلها كمثل المرآة المصقولة ، فكما تنطبع فيها الصور الحسنة تنطبع فيها الصور القبيحة ، أو هى كالصحيفة البيضاء للربى أن ينقش فيها ما يشاء ، الطفل كالشجرة الرطبة الخضراء يمكن إصلاح ما اعوج من أغصانها وإقامته ما دامت رطبة نامية ، بخلاف ما إذا كبرت وجمد ساقها ، فإنه لا يمكن إصلاحها ، ولو عمل على إقامتها لكسرت :

قد ينفع الأدب الأطفال فى صغر ... وليس ينفع عند الشيبة الأدب

إن الغصون إذا قومتها اعتدلت ولن تلين إذا قومتها الخشب

وقال صالح بن عبد القدوس :

وإن من أدبته فى الصبا كالعود يسقى الماء فى غرسه
حتى تراه مورقا ناضرا بعد الذى أبصرت من يبسه

وقديما قيل : « اطبع الطين ما كان رطبا ، واغمز العود ما كان لدنا » .

فالصبى إذا تربى تربية صالحة فى صغره وشب على الفضيلة ، وتعود على العادات الحسنة والتقاليد الكريمة ، والمثل الأخلاقية الرفيعة ، فلا غرابة أن تنمو فيه هذه الخصال وتزداد حسناً كلما كبر .. وعلى ضوء هذا نستطيع أن نفهم سرا من أسرار قول حكيم الإسلام عليه الصلاة والسلام : « مروا أولادكم بالصلاة لسبع واضربوهم عليها لعشر وفرقوا بينهم فى المضاجع » .

فالأم هى التى عليها المعول فى تأديب صغارها وبث روح الجرأة والشجاعة فى نفوسهم ، وتجميلهم بمحاسن الصفات ومكارم الأخلاق ، ليكونوا فى المستقبل أفرادا نافعين ، وأعضاء عاملين ، وأحرارا مكافحين ، يلبون نداء الوطن إذا ماجد الجد . . ألا ترى أن هندا زوج أبى سفيان حين قال لها بعض قومها : « إن ابنك معاوية هذا سيسود قومه .. فما كان جوابها إلا أن قالت : ثكلته إن كان لايسود إلا قومه » وهذا عبدالله بن الزبير يدخل على أمه « أسماء بنت أبى بكر الصديق » فيقول ياأماه قد خذلنى الناس حتى ولدى وأهلى ولم يبق معى الا اليسير ومن ليس عنده أكثر من صبر ساعة ، والقوم يعطونى من الدنيا ما أردت فما رأيك؟ فقالت : أنت أعلم بنفسك ياولدى . إن كنت تعلم أنك على حق وإليه تدعو فامض له ، فقد قتل عليه أصحابك ، ولا تمكن رقبتك من غلمان بنى أمية .. وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت أهلكت نفسك ومن معك !! وإن قلت يابنى : كنت على حق فلما وهن أصحابى ضعفت ، فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين ، وما خلودك فى الدنيا ؟ القتل أحسن . قال عبد الله : ياأماه أخاف إن قتلنى أهل الشام أن يمثلوا بى ويصلبونى !! قالت : إن الكبش إذا ذبح لا يؤلمه السلخ فامض على بصيرتك واستعن بالله .. فخرج عبد الله وأسند ظهره إلى الكعبة ومعه نفر يسير فجعل يقاتل بهم حتى قتل ومثلوا به واقتطعوا رأسه وجاءوا به

إلى الحجاج فأرسله إلى عبد الملك ابن مروان .

وكانت الخنساء بنت عمرو بن الحارث تعتبر بحق فى عداد الأمهات الفضليات والمرباب الحكيمات : دفعت بأبنائها الأربعة إلى ميدان الجهاد ؛ للذياد عن الدين والوطن ، بعد أن زودتهم بالنصائح والإرشادات ، وكان من قولها لهم : « أسلمتم طائعين ، وهاجرتم مختارين ، ووالله الذى لا إله الا هو إنكم بنو امرأة واحدة ، ما هجنت حسبكم ، ولا غيرت نسبكم .. وقد تعلمون ما أعد الله للمسلمين من الثواب الجزيل فى حرب الكافرين ، واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية .. فإذا أصبحتم غدا إن شاء الله سالمين فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين وبالله على أعدائه مستنصرين .. » فما أن أصبح الصباح حتى هرع الإخوة الأربعة بنفوس مطمئنة وصدور منشرحة ، إلى ميدان القتال ، فأبلوا بلاء حسنا ، وظلوا يقاتلون بشجاعة وبسالة حتى قتلوا !! وحين جاءها النعى باستشهادهم ، صبرت واحتسبت ، وقالت كلمتها الخالدة : الحمد لله الذى شرفنى باستشهادهم ، وأرجو من ربى أن يجمعنى بهم فى مستقر رحمته » .

أما إذا كانت الأم غير مهذبة ، جاهلة ليست مثقفة ، قد تربت بين أحضان الجهالة والفوضى ، وتسممت أخلاقها بقبائح البيئة التى نشأت فيها ، أو كان فى طبعها حدة ، وفى قلبها قسوة ، لا تحنو على أطفالها ، ولا تشملهم بحسن رعايتها ؛ فإنه لابد وأن يكون لها تأثير سيء فى أخلاق أولادها ، فتنزل بهم إلى الحضيض وتجنى عليهم شر جناية . وفى ذلك يقول شوقى :

وإذا النساء نشأن فى أمية رضع الرجال جهالة وخمولا

وقد ورد فى تقرير الهيئة الصحة العالمية عن « رعاية الأم والصحة العقلية » أن الدراسات أثبتت أن : « حرمان الطفل من رعاية الأمومة يعرقل نموه البدنى والعقلى والاجتماعى ، وقد تظهر عليه أعراض المرض البدنى والعقلى مباشرة .. ولو كان فى ملجأ توفرت فيه أسباب العناية المادية ، دون العناية العاطفية والنفسية أو كان فى أحضان أهله ولكنه منى بأم قاسية » .

« يتبع »